

الأهداف التعليمية: تمكين الطالب من التعرف على أسباب ظهور الدولة القومية الحديثة ككيان سياسي مستقل، وهو ما سمح بقيام نظام العلاقات الدولية فيما بعد.

### المحاضرة الثانية: بداية تشكل الدولة الوطنية (مميزاتها وإشكالاتها)

مع بداية عصر النهضة، وبداية تدهور النظام الإقطاعي، بدأ الشعور القومي في النمو مقترناً مع تحرر هؤلاء من ذلّ الإقطاع، ما أسهم في التمهيد لقيام دولة قومية موحدة ذات نظام حكم واضح [38]. وهكذا استمرت أوروبا حتى القرن الحادي عشر الميلادي منطقة ريفية متوقعة على ذاتها، لم تتشكّل على المستوى السياسي، كما أنّها كانت مجرد منطقة مُتخلفة بالقياس إلى كلّ من العالم البيزنطي، وعالم الحضارة العربيّة-الإسلامية [39].

### التحوّل نحو نظرية الدولة القومية في أوروبا العصور الوسطى

لقد كان القرن الحادي عشر بالنسبة للغرب الأوروبي قرن تحولٍ مهمّ، فالمؤسسات التي أخذت تتشكّل منذ القرن السادس الميلادي، قد ترسّخت في القرن الحادي عشر، وهذا ما جعل بعض المؤرّخين المختصّين في تاريخ العصور الوسطى يطلقون على تلك الفترة اسم العصور الوسطى الناضجة. لقد شهد القرن الحادي عشر جملة من القادة الطموحين، من أمثال "وليم الفاتح" ملك إنجلترا، والإمبراطور "هنري الثالث" وابنه "هنري الرابع"، و"روجر الأول" النورماني حاكم صقلية، وروبرت "جويسكارد" الذي كان ابنه "بوهيموند" من أبرز زعماء الحملة الصليبية الأولى، و"ألفونسو السادس" ملك قشتالة. وكان أولئك جميعاً من الحكّام الجنود الذين كانوا يبحثون عن السلطة والملك والكفاءة، ويمثّلون الغدر والطموح والتعصّب. وبينما كان الغرب الأوروبي يميل إلى مبدأ الدول القومية، كان نموذج الإمبراطورية المسيحية الأوحده ممثلاً بالإمبراطورية البيزنطية في الشرق الأوروبي في تراجع، فمنذ هذا القرن أخذت بيزنطة تعاني مظاهر التآكل البطيء والضعف الناجم عن الصراع الداخلي، والهزيمة الخارجية الفادحة على يد جيوش المسلمين في معركة "ملاذ كرد" سنة 1071م، وهكذا بدأ ينهار مفهوم الدولة الإمبراطورية لصالح الدولة القومية. (1)

1 - قاسم عبده قاسم، ماهية الحروب الصليبية، مجلّة عالم المعرفة، الصادرة عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب- الكويت، العدد 149، مايو 1990، ص49.

لكن هذه الدولة القوميّة كانت تحتاج إلى الكثير حتّى تتبلور مفاهيمها، فالشعوب الأوروبيّة كانت حينئذٍ قد خرجت من مرحلة الحضارة البدائيّة، ولم تكن بعد قد انقسمت إلى معسكرات عديدة مسلّحة (على اعتبار أنّ الجيش الوطني من أهمّ دعائم الدولة)، فالجموعه الإقطاعيّة كان من العسير تعبئتها في جيش وطني، بل كان أشدّ عُسرًا إبقاؤها في الميدان، وإذا ما نظرنا إليها في أفضل صورها وجدناها سلاحًا صعب المراس. كما استمرّ المفهوم السائد في أوروبا العصور الوسطى أنّ جيشًا عاملاً من الجنود المأجورين، كان يتطلّب عبئًا من الضرائب أثقل وأكثر انتظامًا من أن يجرؤ على فرضه أيّ حاكم أو أن يستطيع تلبّيته أيّ شعب. ومن أجل ذلك، كان لحروب العصور الوسطى - باستثناء بعضها - طابع العقم والتفاهة. وأمّا المشرّعات التي كان مبعثها الطموح إلى السلطة، فقد كان مقدّرًا لها الفشل، والقوى التي قضى عليها في الظاهر جيش غازٍ، قد استجمعت قواها بمجرد ابتعاد ذلك الجيش. وموجز القول: أن السياسة في العصور الوسطى كانت على كلا المسرحين الأوروبي والمحلّي، تعني تكرار حدوث المشكلات والخلافات نفسها، وتعني تكرار وسائل التهذئة والحل نفسها. (1)

لا ريب في أنّ فاعلية النزعات التي أدت إلى تجزئة العالم المسيحي إلى وحدات ملكية قومية، قد اختلفت باختلاف درجة تطور تلك الدول والشعوب على الصعيد السياسي أو الاجتماعي أو الاقتصادي أو الفكري، ولكنّها قد صادفت في كلّ مكان حقلًا خصبًا بفضل فقدان السلطة المنظّمة. ومنذ أن تزعزت القوى الثلاث التي كان الأمل معقودًا عليها بتهذئة العالم الغربي وتنظيمه وإدارته، بات الانقسام أمرًا حتميًّا، (2) فالإمبراطوريّة قد تحطّمت منذ وفاة "فريدريك الثاني" ولم تتم استعادتها، بل تنازل الإمبراطور "رودولف هابسبورغ" (1291-1273م) للبابويّة عن كلّ حقوق الإمبراطوريّة في إيطاليا، بينما ورّط أودولف هابسبورغ (1291-1298م) الإمبراطوريّة في حرب خاسرة مع فرنسا، كانت نتيجتها تفكّك الإمبراطوريّة وضعفها. (3) ولم تفلح محاولات "هنري الرابع" و"لويس دي بافيير" في استعادة مجد الإمبراطوريّة الذي أمسى سرايبًا، فالنفوذ والقوّة اللذان كان من شأنهما دعم مطالبتها بإدارة الأمراء الألمان لم يُجديا بعد أنّ بات التاج يباع بالمزاد العلني. كما أنّ مفهوم الإمبراطوريّة بروحها الجغرافيّة منذ أنّ فصلت عنها الأقاليم الفرنسيّة والإيطاليّة، وجاورتها الممالك السلافيّة وعمّتها الفوضى الداخليّة، وبالتالي لم تعد الإمبراطوريّة سوى حلم لا طائل فيه. (4)

1 - هنري كارلس ديفز، أوروبا في العصور الوسطى، ترجمة: عبد المجيد محمود، دار المعارف، الإسكندريّة 1958م. ص154-155.  
2 - إندوار بروي، تاريخ الحضارات العام (القرون الوسطى) (ج3)، نقله إلى العربيّة: يوسف داغر، فريد داغر، منشورات عويدات، بيروت - باريس، ط2، 1986م. ص455.  
3 - نعيم فرح، تاريخ أوروبا السياسي في العصور الوسطى، منشورات جامعة دمشق، دمشق، ط6، 2005م. ص140-141.  
4 - إندوار بروي، تاريخ الحضارات العام (القرون الوسطى) (ج3)، ص455.

أما البابوية التي غدت على الصعيد الزمني أقوى ملكية مركزية منظمة ولم ينازعها أحد في رسالتها الدينية ودورها العقائدي، لكن كان لها مزاعمها الثيوقراطية البالية حين تبدو وكأنها خاضعة لرغبات ملك فرنسا، في حين كانت تتنازعها الانشقاقات وتمزقها المصالح القومية المتباينة؛ لم تفقد دورها في إدارة السياسة فحسب، بل أخذت تفقد دورها التحكيمي أيضاً. إذ إن محاولاتها الكثيرة في سبيل التوفيق بين فرنسا وإنكلترا قد ذهبت أدراج الرياح. بينما كانت مملكة فرنسا، وهي الحاضرة بنفوذها التاريخي، المؤهلة الوحيدة في نظر رجال القانون المحيطين بالملك "فيليب له بيل" لإدارة سياسة العالم المسيحي والحلول محل الإمبراطورية والبابوية اللتين برهنتا عن عجزهما، لكن مملكة فرنسا كانت تستند في أحلامها إلى الذكرى فقط. ففي الوقت الذي شغرت فيه الساحة الغربية من أوروبا، كان نفوذ فرنسا مادياً وروحياً قد مال إلى الهبوط، ثم جاءت الحرب واستعجلت هذا الهبوط، فكذبت الوقائع أقوال المنظرين. لذلك فإن كثيراً من المفكرين اعتصموا بالصمت والانتظار بعد أن أعياهم إدراك مصير تجزئة العالم المسيحي وخلافاته. وقد اتخذ موقف الانتظار هذا في النقاط الحساسة من النزاع الفرنسي الإنكليزي؛ أي في بريطانيا ومنطقة الباسك ولا سيما في هولندا؛ شكل الحياد. ولما عجزت الممالك الإسبانية عن تحديد نفسها وموقفها على الصعيد الديني، فإنها اعتصمت طيلة السنوات التي أعقبت قيام الانشقاق الديني، باللامبالاة بالوضع السياسي الذي تبلور في أوروبا الغربية. وهكذا، لم يكن هناك بصيص أمل في وحدة الغرب الأوروبي مرة ثانية في دول إمبراطورية واحدة، سواء زمنية أم ثيوقراطية. (1) لذلك بدأ نزوع بعض بلدان أوروبا نحو النزعة القومية ينمو تدريجياً وبسرعة متزايدة، لقد بدأ ذلك النزوع منذ القرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين، وقد اعتمدت تلك النزعة القومية على الطبقة الوسطى التي اقتحمت مجال التجارة والصناعة على حد سواء، ولم تعد الأرض وملكيّتها مصدر الاقتصاد الوحيد، مما أدى إلى زوال النظام الإقطاعي وبداية تبلور الدولة الوطنية الحديثة (الدولة القومية) Etat Nation. وهكذا كان لهذه الطبقة دور مهم في ميلاد الدولة الحديثة الوطنية، وقد تعزز الشعور القومي مع تحوّل اللهجات الأوروبية المحلية إلى لغات قومية، واتّفاقها إلى حدّ ما في الجنس وفي الدين، فنشأ الشعور القومي Nationalisme، ومن ثمّ انقسمت دول أوروبا إلى مجموعة من الأمم (Nations)، (2) وكانت فرنسا سبّاقة في هذا التوجّه، حتّى إنّها أتت على رأس هذه البلدان؛ فنحو نهاية القرن الثاني عشر كان قد تمّ التحدّث باللغة الفرنسية في كل بلاطات أمرائها،

1 - إدوار بروي، تاريخ الحضارات العام (القرن الوسطى) (ج3)، ص455-456.

2 - محمود جمال الدين، عبد العزيز نوار، التاريخ الأوروبي الحديث (من عصر النهضة حتّى نهاية الحرب العالمية الأولى)، دار الفكر العربي، القاهرة 1999م، ص36.

كما كانت اللغة الرسمية في الإمارات التي أسسها الصليبيون شرقي البحر الأبيض المتوسط، وكانت حياة النبلاء الفرنسيين الرسمية نموذجاً يحتذى ويتم تقليدها في كل مكان في الغرب الأوروبي.(1)

كما أن التحول الأهم كان في انتقال زمام المبادرة في المجال السياسي مع نهاية العصور الوسطى من أرستقراطية النبلاء إلى فئة من الأفراد، على اعتبار أن النزعة الفردية كانت من أهم ركائز النهضة الأوروبية. فقيادة المرتزقة والأمراء والملوك هم من قاد أوروبا خلال هذه الحقبة، وهم من تصرفوا في شؤون الرعية والعدالة والحروب المأجورة، فكانوا يعقدون الأحلاف والمعاهدات، وينظمون أمور التجارة والانتاج؛ أي قاموا بتصريف كل المهام التي كانت تعهد فيما مضى للروابط والنقابات، واتحادات الحرفيين أو مجالس المدن التي كان يسيطر عليها الأرستقراطيون فيما مضى(2). وهكذا نجد أنّ النهضة الأوروبية قد أسهمت في الجانب الأول من الناحية السياسية في ميلاد الدولة الحديثة، ومنها إنكلترا وفرنسا وإسبانيا، وقد استغلت هذه الدولة القومية الحديثة الطبقة الوسطى (البرجوازية) التي نشأت معها، وهي تلك الطبقة التي نمت مع التجارة في تدعيم حكومات هذه الأمم.(3)

كما أننا نجد أن النهضة الأوروبية قد أسهمت في الجانب الثاني من الناحية السياسية في ظهور النزعة الفردية والتعصب القومي بين أبناء القارة الأوروبية الواحدة، على أساس الشعور القومي الذي يربط بين أبناء الأمة الواحدة، فالأمم الحديثة كالأمة الإسبانية أو الإنكليزية أو الإيطالية، لم يتم تكوينها على أساس التماسك بين أبنائها والشعور بالفارق بينهم وبين غيرهم من أبناء الأمم الأخرى، إلا في عصر النهضة. بينما ظلّ المفكرون السياسيون في العصور الوسطى متأثرين بتقاليد الإمبراطورية الرومانية العالمية، وفكرة الكنيسة العالمية أيضاً، ومن ثم اعتبروا العالم المسيحي بأكمله يمثل دولة واحدة على رأسها زعيمان هما البابا والإمبراطور، ليعبر الأول عن السلطة الدينية، ويعبر الثاني عن السلطة الدنيوية. وهكذا أسهمت النهضة في إنكار وهدم كل هذه المبادئ، فأولاً نادى بالنزعة الفردية، وثانياً نادى بأن لكل دولة كيان سياسي مستقل، يعتمد على الشعور القومي الذي يربط بين أبنائها الذين ينعمون بالفردية والحرية والاستقلال، ما جعلهم يتعصبون لبعضهم بعضاً، فضلاً عن تعصبهم لأوطانهم الجديدة(4). وهكذا أمست أوروبا في نهاية المطاف منقسمة إلى عدد من الدول، لكلّ منها مصالحها المختلفة عن الأخرى، ونظامها السياسي الحاكم فيها، وغالبا ما يفصل

1 - موريس بيشوب، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ترجمة: علي السيد علي، المشروع القومي للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة 2004م، ص51.

2 - ماريا لويز برنيري، المدينة الفاضلة عبر التاريخ، ترجمة: عطيات أبو السعود، مراجعة: عبد الغفار مكاوي، مجلة عالم المعرفة، الصادرة عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب- الكويت، العدد 225، سبتمبر 1997م، ص82.

3 - محمود جمال الدين، عبد العزيز نوار، التاريخ الأوروبي الحديث، ص10.

4 - سعيد عاشور، أوروبا في العصور الوسطى (النظم والحضارة) (ج2)، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة 1959م، ص286.

الدول عن الأخرى منطقة عريضة من الأرض المتنازع عليها،<sup>(1)</sup> فكانت سببا في إشعال حروب دموية وعنيفة بين هذه الدول الأوروبية القومية الحديثة على قضية ترسيم الحدود بسبب طمع كل دولة في مقدرات الدول الأخرى.<sup>(2)</sup>

لقد جاء مفهوم الأمة (Nation) في الوقت المحدد ليساند مبدأ السلطة المركزية أو السيادة الرومانية التي حاول الملوك والأمراء الغربيون إرساء سلطتهم عليها، وقد أرسى أركانها تقليد قبول أعضاء المجلس الأعلى في فرنسا، و"وحدة المملكة" في إنكلترا، فغدا هنا "السيادة والقوة"، وهناك "السلطة المطلقة" التي تحدد كلها السلطة الملكية، واعترف الملك في إقسامه اليمين للرب وللرعية أمام الرب، بأنه لن يكون سوى حارس شعبه. وفي فرنسا نفسها كتب مؤلف "حلم الروضة" بأمر من الملك "شارل الخامس": "إن الملك يُقام.. بإرادة الشعب وحكمه". وبحث الملوك في كل مكان عن نقطة يرتكزون إليها في الاستشارات القومية لاسيما الجمعيات مجالس الطبقات، البرلمانات، المجامع، ومجلس المندوبين، التي كانوا يطلبون إليها إبرام أو رفض المعاهدات، ويعتصمون بأرائها، وكأنها آراء رجال قانون لتبرير أخطر القرارات التي يتخذونها في حقل السياسة الداخلية أو الدولية. ويمكن القول في هذا السياق إن الأمة التي يرمز إليها اتفاق الأمير وممثلي الجماعات، كانت مدعوة لأن تصبح مرتكزة السيادة بالذات. وإذا ما نظرنا من هذه الزاوية إلى الصراع الفرنسي الإنكليزي الطويل، الإقطاعي في ظواهره، والصلالي في أسبابه المعلنة، لرأينا أنه ملكي قومي في جوهره في آن واحد، لأنه استعجل انهيار الأنظمة الإقطاعية، وبرهن في الوقت نفسه على أنه محاولة لتحديد النطاق الإقليمي والبشري، إذ يستطيع كل أمير بل يتوجب عليه ممارسة سيادته كاملة.<sup>(3)</sup>

لقد أنهى نشوء الدول الأوروبية القومية الحديثة الأنظمة الإمبراطورية والثيوقراطية(الدينية)، تلك الأنظمة التي استمرت طيلة العصور الوسطى وكانت سمة بارزة لها. فالدولة الإمبراطورية والكنيسة ظلتا تتلاعبان بخيوط الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية في أوروبا العصور الوسطى إلى أن ضعفتا فأفسحتا المجال لظهور نظام سياسي جديد. وهكذا اندثرت بعض النظريات السياسية التي كانت سائدة في العصور الوسطى، ومنها النظرية القائلة بأن الكنيسة لها الهيمنة على الحياة الروحية، في حين يحكم الإمبراطور في الأرض بتفويض من الله عز وجل، وليس لأي شخص أن يحاسب الإمبراطور، إذ أنه يستمد سلطانه من الله تعالى. لقد بدأت تظهر نظريات سياسية جديدة تتناغم أكثر مع مصالح الطبقة الوسطى والنظام السياسي الذي ارتضت أن تتحالف معه (النظام الملكي المطلق)، ومنها النظرية التي تؤمن بأن للملك الحق في استخدام الوسائل كافة التي

1 - هنري كارلس ديفز، أوروبا في العصور الوسطى، ص 157.

2 - سعيد عاشور، أوروبا في العصور الوسطى (النظام والحضارة)(ج2)، ص 286.

3 - إدوار بروي، تاريخ الحضارات العام(القرون الوسطى)(ج3)، ص 454-455.

يراها مناسبة لنمو ورقي الأمة، وكذلك النظرية الأخرى القائلة بأن الحكومة إنما أنشئت لأهداف واضحة، وهي تحقيق مصلحة المواطنين أو المحكومين(1).

وسرعان ما بدأ يظهر لهذه الدول القومية الأوروبية الحديثة نوع من السياسة الخارجية، وإن كانت في إطارها العام تافهة أو قاصرة عن المفهوم العلمي للكلمة، إلا أنها تعبر عن واقع الحال، فالأحلاف السياسية الواسعة - وإن كانت تنسّق باستمرار - فإنها نادرا ما وجدت وفي الأحوال النادرة التي وجدت فيها، لم تؤد إلى أي نتيجة ملحوظة. على أن بعض المصالح المشتركة كان مسلما بها، فلم تنظر أي قوة نظرة عدم الاكتراث إلى أي حركة تهدد وجود البابوية التي كانت تمثل الوحدة الدينية. ومع أن مبدأ توازن القوى لم يكن قد تبلور بعد، فقد كان مفهوما حتى ذلك الوقت أن نمو أي قوة نمو متطرفا يزجج القوى الأخرى حتى ولو لم تكن في خطر من الغزو الوشيك. ولذلك فكلما اكتسبت الإمبراطورية اليد العليا على الكنيسة أو كلما ظهر حشد من الآسيويين في الأفق يهدد أوروبا بالغزو، أو كلما بدت فرنسا على وشك أن تصبح ولاية لإنكلترا، أو إيطاليا ولاية لفرنسا، دق ناقوس المنذرين أجراس الخطر، وتبع ذلك تبادل الآراء بين الحكام، فتعقد المعاهدة تلو الأخرى، ويكون التحالف في مقابل الآخر. غير أن الشعوب نادرا ما كانت تتحرك، وينتهي اضطراب الطبقات الحاكمة في فورة الكلام(2).

**الخاتمة:** يتضح لنا من خلال هذا التحليل أن البحث في تاريخ تكوّن نظرية الدولة في أوروبا، يشير إلى أنّها لم تعرف خطأ تطوّرياً تصاعدياً واحداً، وإنّما تمحورت هذه النظرية في مطلع العصور الوسطى نحو مركزية شديدة، في محاولة لتقليد الإمبراطورية الرومانية القديمة، إلا أنّ هذا النظام المركزي في الحكم سرعان ما زال وتلاشى. ومع بدايات عصر النهضة، بدأت أوروبا تميل نحو الدولة الوطنية، وبدأت تتشكّل ملامح نزعة قومية تعصبية بين سكان أوروبا، وقد اختلفت حدّة هذه النزعة باختلاف درجة تطوّر تلك البلدان والشعوب على الصعيد السياسي والاجتماعي والاقتصادي والفكري، ومن ثم اتجه التفكير السياسي نحو تشكل اتجاهات سياسية تحمل تصورات لنموذج الدولة الوطنية الحديثة والأسس التي يجب أن تقوم عليها، خاصة بعد فترة حرب الثلاثين التي انتهت بما يسمى اتفاقيات وستفاليا التي وضعت الأسس الأولية لقيام نظام العلاقات الدولية من جهة و إعلان نهاية نموذج الدولة الإمبراطورية من جهة أخرى، وقيام نموذج الدولة الوطنية الحديثة ككيان سياسي مستقل.

1 - محمود جمال الدين، عبد العزيز نوار، التاريخ الأوروبي الحديث، ص10.

2 - هنري كارلس ديفز، أوروبا في العصور الوسطى، ص156.